أ. مقام عبد القادر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم الثقافة الشعبية
– جامعة تلمسان–

تأملات حول أحداث 11 سبتمبر 2001 وموقف الاسلام منها

مقدمة:

هذه الدراسة تتعلق بالأحداث والمفاجآت المتتابعة التي تمخضت عن أعمال العنف يوم 11 سبتمبر2001 بتفجيرات برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك والبنتاغون (وزارة الدفاع الأمريكية) في واشنطن ،يبحث في جذور ما خلف هذه الأحداث، مشيرا إلى موقف الإسلام وتبيانه في ظروف اختلطت فيها الحقائق بسوء الفهم مما يحتاج إلى وقفة تأمل عند تناول هذه الأحداث لعلها تنفع في التبصر.

أولاً – ردة الفعل

عندما أطلق الروس قمرهم الصناعي الأول، اهتزت الأوساط التربوية في أميركا، وكان السؤال الكبير: كيف استطاع الروس أن يسبقونا في مضمار الفضاء؟ وجاء الجواب، بعد الدراسات المستفيضة: لقد أخفقت المدرسة الأميركية في تعليم تلامذتها القراءة الجيدة، ورفعوا شعاراً يؤكد أن (من حق كل طفل أن تهيأ له جميع الفرص ليكون قارئاً جيداً). (1)

كان ذلك ردَّ فعل عاقل، استفاد من الدرس، ونفذ إلى عمق المشكلة، ووعى أسبابها الكامنة، وخطط لاستيعابها وتجاوزها، فحقق ماكان يصبو إليه من سبق وتقدم.

لماذا لم يفعل الشيء نفسه مع الحدث الكبير في نيويورك وواشنطن عشية أحداث 11 /2001/9 ؟

لقد كان صوت الأوساط التربوية خافتاً هذه المرة.. لم نقرأ تحليلاتهم العميقة لما وراء الحدث.. لم نرَ إلا نادراً آلياتهم الفكرية تبحث عن أسبابه الكامنة..

إنما رأينا آلتهم العسكرية وحدها تتحرك، وتستنفر العالم كله للتحالف معها ودعم مهمتها في القتل والتدمير والانتقام.. وسمعنا بياناتهم الحربية؛ تعلن تفوقهم وسيطرتهم التامة على أجواء العراق وأفغانستان .. وتعلن تدمير الدفاعات الجوية المهترئة لطالبان.. وتزرع الأرض شبراً شبراً بقنابلها العنقودية والانشطارية. (2)

لن يتردد أحد في شجب العملية المروِّعة التي تعرضت لها نيويورك وواشنطن، وفي الشعور بالأسى للدماء التي أريقت، والنفوس التي أزهقت، وركاب الطائرات الذين سيقوا إلى حتفهم من غير ذنب، والموظفين الذين دفنوا تحت أنقاض مكاتبهم التي بكروا إليها لأداء واجباتهم، فالدم الإنساني حرامٌ أياً كان الدين والعرق الذي ينتمي إليه.. وسفكه من غير حق عدوان فاضح على الجنس البشري كله.. (3)

ثانيا– الإسلام والحدث الكبير

لا شك أن ما حدث في نيويورك وواشنطن يوم الثلاثاء الحادي عشر من سبتمبر 2001، هو حدث

إنساني كبير، يهم العالم بأسره، ولسوف

يشكل منعطفاً تاريخياً حاداً، يصلح لأن يؤرخ به، ومن غريب المصادفة أن يأتي في السنة الأولى من الألفية الثالثة، ليكون بداية لها، تؤرخ به.

ولا شك أن من حق كل إنسان يعيش على هذه الأرض أن يدلي بدلوه في رسم حدود هذا المنعطف، ومعالم الطريق الذي سيضع الإنسانية عليه!..

فنحن نعيش عصر العولمة الذي اختزل القرى في قرية كونية واحدة، وألغى ما بينها من أبعاد وحدود، وكسر كل الحواجز والسدود، فلم يترك لقرية أن تعزل نفسها عن البشرية متقوقعة على نفسها .ونحن نعيش عصر المعلومات وثورة الاتصالات الذي بدَّل معايير ارتقاء الأمم وتقدمها من ثروة المال ومداخن المصانع وقوة السلاح إلى ثروة المعلومات وقوة المعرفة، فكسر بذلك جميع الاحتكارات، وأسقط كل الإيحاءات، إذ المادة الأولية للمعرفة والمعلومات هي الفكر والعقل، وهي مادة مشاعة بين البشر يملكها الجميع بالتساوي، لا ينفرد بها عرق أو لون أو أمة أو شعب ... ولعل ما حدث يوم الثلاثاء، وما حدث قبله من اختراقات إلكترونية على شبكة المعلومات لبرامج البنتاغون يؤكد هذه الحقيقة.. حقيقة شيوع المعرفة وكسر الاحتكارات. (4)

فأين كان موقع الإسلام من الحدث، وما كان موقفه منه بوصفه المرشح الأول للمواجهة مع الغرب في صراع الحضارات، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، كما صوَّره هنتنغتون، وصادقت على هذه الصورة تاتشر وكثير من المفكرين الغربيين؟

لم يتردد الأميركيون فور وقوع الحدث في وضعه في قفص الاتهام، بل إنهم تجاوزوا توجيه أصابع الاتهام، وعجلت ألسنة قادتهم – ربما لهول الصدمة – بإعلانها حرباً صليبية، اتخذوا لها شعار النسر النبيل، وهو شعار الحملة الصليبية التي سبق للغرب أن شنها على الإسلام – كما نعلم –

ثم بدا لهم – تقية – أن يعتذروا عما زلقت به ألسنتهم، تفادياً لإحراج حكومات الدول الإسلامية التي يريدونها لتشاركهم حملتهم ضد الإرهاب..[5]

ثم أطلقوا شعارهم الجائر: من لم يكن معنا في مكافحة الإرهاب على الطريقة التي نرسمها فهو ضدنا يقف في صف الإرهاب، متجاهلين كل حق للإنسان في الاختلاف والتعدد واختيار الرأي الأفضل.

ومعظم حكام العالم الإسلامي، قبلوا الاتهام، ومدوا أيديهم لمثل الادعاء؛ يكبلها بالقيود ثم يقودها إلى قضاة التحقيق ليحلفوا لهم الأيمان المغلظة على براءتهم من الإرهاب، واستعدادهم للتهاون، وتقديم ما يطلب منهم من قرابين. من جهة أخرى ندرك آية الله فيما نراه من إقبال الغربيين على اعتناق الإسلام كلما أتيح لهم أن يطلعوا على عظمته[6]،برماً بمادية حضارتهم المغرقة وخوائها الروحي، وإعجاباً بما يحققه الإسلام للإنسان من طمأنينة ترضي تطلعاته إلى الحق، وتوازن لا يهمل بُعده الروحي ومصيره.. حتى إنه بات يشكل – في إحصاءات اليونيسكو – الدين الأكثر انتشاراً وتقدماً في العالم بفارق كبير يفصله عن سائر الملل والديانات.

يحدث ذلك من دون أية جهود تبشيرية تبذل، وعلى الرغم من النماذج التطبيقية السيئة، ومن التخلف الذي يعيشه العالم الإسلامي، مما يؤكد قدراته الذاتية على الانتشار من جهة، وفعالية الكلمة وحتمية ظهور الحق على الباطل تلقائياً من جهة أخرى، وأن الإسلام يعتمد على هذه القوة الذاتية للحق[7](**وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً**) الإسراء: 81/17.

فما هو هذا الإسلام؟ وما خطابه للناس؟ وكيف يتعامل مع الآخر؟ ومن هو الآخر في نظره؟ وما موقفه من الإرهاب والعنف؟

أما الإسلام فهو الرسالة الخاتمة الجامعة لكل الرسالات، جاءت مكملة لها، ومعترفة بها، مؤكدة وحدتها في المصدر والمنهج (**ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**) البقرة: 136/2.

وأما خطابه فقد جاء للناس كافة غير محدود بقوم أو لون أو عرق أو دين: (**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي لا إله إلا هو يحيي ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، واتبعوه لعلكم تهتدون**) الأعراف: 158/7. وتردد لفظ الناس في القرآن 241 مرة ليدل على عموم الخطاب.

وأما وسيلته في دعوة الناس إليه فهي البلاغ المبين، والحجة البالغة، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، والحوار المفتوح دون مسلمات مسبقة، واستبعاد كل أساليب الإكراه 8(**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**) البقرة: 256/2. و(**ما على الرسول إلا البلاغ**) [المائدة: 99/5] ويؤكد على رسوله (**فما أرسلناك عليهم حفيظاً. إن عليك إلا البلاغ**) الشورى: 48/42، ويحذره من إكراه الناس على الإيمان (**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**) يونس: 99/10.

ومن الطبيعي بعد كل هذا الإلحاح على تجنب الإكراه في الدين، أن يكون الإنسان حراً في اختيار دينه ورأيه، غير مضطهد، بسبب اختياره (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) الكهف: 29/18.

ومن الطبيعي كذلك - بحسب تعاليم القرآن العظيم - ألا يكون الكفر والإيمان مدعاة للتخاصم والتقاتل بين المسلمين والكافرين، فقد اختصّ الله تعالى نفسه بالحساب عليهما ولم يأذن بذلك لرسوله (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) الرعد: 40/13.

إنما أذن الله للمؤمنين بالقتال دفعاً للظلم ودفاعاً عن النفس (أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير) الحج: 39/22، فعلة القتال المأذون به هي الظلم وليس الكفر (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين) الممتحنة: 8/60، (فإن اعتزلوكم، فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً) النساء: 90/4.

وللإسلام موقف واضح من العدوان، فهو ينهى المسلمين عن ممارسته (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين) البقرة: 190/2، كما ينهاهم عن التعاون عليه: (وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) المائدة: 2/5 وعن مجرد التناجي به فضلاً عن التآمر عليه (فلا تتناجوا بالإثم والعدوان) المجادلة: 9/58.

ويعيب على بني إسرائيل مسارعتهم إلى الإثم والعدوان خلافاً لما أمروا به (وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون) المائدة: 62/5.

وإنما دعا الإسلام إلى الجهاد بشروطه، فالكفر وحده لا يكون سبباً مسوغاً للجهاد، إلا إذا اقترن بأحد أمرين الحرابة أي إعلان الحرب على المسلمين أو الظلم. فإذا تحقق أحد الشرطين وجب الجهاد واستنفر المسلمون له، وكانت دوافعه رد العدوان ودفع الظلم(9).

وفي ذلك يقول الله تعالى:(إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)الممتحنة: 9/60، فتكون موالاة الظالم والسكوت عن ظلمه ظلماً بحد ذاته. ويقول أيضاً:(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً)النساء: 75/4.

والقتل من غير مسوِّغٍ شرعي جريمة كبرى بحق الإنسانية كلها – في نظر الإسلام – (من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً)المائدة: 32/5.

والأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلام لا الحرب فالسلام أحد أسماء الله تعالى الحسنى (الملك القدوس السلام)الحشر: 23/59،

(والله يدعو إلى دار السلام)يونس: 25/10، والمؤمنون (تحيتهم يوم يلقونه سلام)الأحزاب: 44/33، والرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بالصفح والسلام (فاصفح عنهم وقل سلام) الزخرف: 89/43، وعباد الرحمن (إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)الفرقان: 63/25، والمسلمون مدعوون للدخول في السلم كلما تحققت شروطه (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) البقرة: 208/2.

فهل بعد ذلك من ريب في نزوع الإسلام إلى السلم، ورفضه لكل

أشكال الإرهاب، واستعداده للدخول في أي مسعىً يهدف إلى مكافحة الإرهاب، تضطلع به أيدٍ نظيفة غير ملوثة بممارسة الظلم والقهر والعدوان

ثالثا: – مكافحة الظلم لاندحار الإرهاب

الإرهاب أم الظلم؛ أيهما أجدر بالمكافحة؟

للظلم وجه واحد كالح لا تنفع معه محاولات التجميل، ولون واحد أسود حالك لا سبيل لتنصيعه، وتعريف واحد متفق عليه في اللغة والاصطلاح، هو حرمان الإنسان من ممارسة حقه أو بعض حقه، بالإكراه أو الاغتصاب أو وضع اليد، فإذا أضيفت إليه تاء التأنيث أصبح معناه ذهاب نور الشيء ليحل مكانه الظلمة والظلام، فيقال ظلام الليل، وظلام الغابة، وظلام السجن، ويبقى المعنى واحداً في الحالين[10]:

فإنما الظلم ظلمات، كما وصفه نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، فهو لذلك كله يمتنع عن القبول أو التسويغ تحت أية ذريعة...

أما الإرهاب فإنه حمّال أوجه ومتعدد المفاهيم، لم يتفق له على معنى محدد، أو تعريف جامع مانع بعد. فلئن كان المعنى اللغوي للإرهاب الإخافة والإفزاع، فإن هذه الإخافة ربما كان لها ما يسوّغها لدفع ظلم أو منع عدوان أو ردع تآمر أو عقاب جريمة، أو استرداد حق، أو استعادة وطن مستلب... بل إن الإرهاب بهذه المسوغات، يرتقي إلى مرتبة الواجب الذي تفرضه الشرائع والقوانين، ليكون فرض كفاية تقوم به الدول عن طريق جيوشها النظامية ويسمى الحرب، أو فرض عين ينهض به الأفراد بواسطة منظماتهم الشعبية، عندما تعجز الدولة أو تتقاعس عن أدائه، ويسمى حينئذ المقاومة. (11)

وعلى الرغم من كون التفاوض والحوار والتعاون الأصل في فض المنازعات، وكون العنف استثناءً لا يسوغه غير الإخفاق في حل المشكلات بالطرق السلمية، فإن الإرهاب الذي يمارس، حرباً نظامية كان أو مقاومة شعبية، يكون محموداً يجب تأديته إذا التزم بشروطه وضوابطه وآدابه، فمن شروطه أن يكون عادلاً يناضل لرفع ظلم واسترداد حق،ومن ضوابطه أن يكون محدوداً في الزمان والمكان بالحدود التي وقع فيها العدوان، ومن آدابه أن يحافظ على أرواح المدنيين وأمنهم وممتلكاتهم، فالضرورات تقدر بقدرها، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

فإن لم تكن للإرهاب، حرباً كان أو مقاومة، قضية عادلة، أو تجاوز حدوده، أو أصاب أناساً لا ذنب لهم، كان إرهاباً مذموماً وجبت مكافحته.

ومكافحة الإرهاب المنفلت المذموم الذي هو أحد أنواع الإرهاب، تندرج ضمن مكافحة الظلم، الذي هو بطبيعته مذموم كله، ليس له أي وجه حميد يسوغ ارتكابه، بينما ينقسم الإرهاب إلى حميد يجب تأييده

وخبيث يجب استئصاله، وبينهما درجات قد تتشابه في نظر بعض الناس فيلتبس عليهم الأمر، ويقعون في الشبهات، ويوجهون نقمتهم على الإرهاب إلى غير مواضعها. (12)

من هنا نجد أن التحالف بين الأمم المحبة للسلم والراغبة في توفير الأمن للإنسانية، يجب أن يتوجه إلى مكافحة الظلم الذي هو شر كله، بدلاً من أن يتوجه إلى مكافحة الإرهاب الذي قد يكون منه إرهاب عادل مشروع تشجعه الأمم المتحالفة لمكافحة الظلم، وإرهاب ظالم سيكافحه التحالف لأنه جوهر موضوعه.

فإذا توجهت جهود الأمم المحبة للسلم إلى مكافحة الظلم، وتركزت أحلافها عليه، كان ذلك مدعاة لكسب قلوب جميع الشعوب، مهما تعددت معتقداتها وديانتها، فلا يوجد معتقد ولا دين يؤيد الظلم أو يقف في صفه وإلى جانبه...

والظلم مفهومه واضح، لا لبس فيه ولا غموض، يدركه الإنسان بفطرته، بينما الإرهاب، لا تزال مفاهيمه غامضة، ودوافعه متعددة، يسمح تحالف الناس على مكافحته بسوقهم إلى حرب مدمّرة يخوضونها باسمه، ثم سرعان ما يكتشفون أنهم خدعوا بشعارات براقة تخفي وراءها تحقيق مصالح خاصة تنطلق من رغبة بالاستئثار والتسلط، ويشعرون بمرارة استخدامهم لتحقيق مآرب أخرى غير معلنة؛مرارة تدفعهم للانسحاب، إن لم تثر بينهم العداوة والبغضاء، والنـــزاعات على اقتسام الغنائم...

إن التحالف على مكافحة الإرهاب، بمفاهيمه الغامضة غير المحددة، تحالف تقوده المصالح الخاصة التي تنظم قوائم الإرهاب، وتضع عليها كل ما تغريها به أهواؤها ودوافعها الأنانية، فتسلط الضوء على إرهاب مسوَّغ

مشروع، وتعمى عن إرهاب ظالم مدفوع، بحسب توافق المصالح أو تعارضها.

أما التحالف على مكافحة الظلم، بما يتسم به مفهوم الظلم من الدقة والوضوح، فإنه تحالف تقوده القيم والمبادئ الإنسانية المشتركة، والقيم لا تعبأ بالمصالح الخاصة، ولا تفرق بين الأعراق والأجناس والديانات، ولا تحابي مقرباً أو محبباً أو معظماً، فالحق عندها أحق أن يتبع.

هكذا نجد محمداً رسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام ينادي في الناس "**إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**"متفق عليه، من حديث عائشة"ويضع الجميع أمام القضاء على حد سواء. ونجد القرآن العظيم يأمر المسلمين أن يعدلوا [**ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى**] [المائدة 8/5].

فما معنى التحالف لمكافحة الإرهاب، إذا كانت هذه المكافحة تعني قتل آلاف المستضعفين الآمنين، وتشريد الملايين، وإيقاد نار الفتن، وزرع البؤس واليأس والإحباط في النفوس، لإنتاج المزيد من الإرهاب؟ هل عثرت أميركا في المظلومين المقهورين على العدو المفترض تفرغ فيه عدوانها وقدراتها التدميرية، بعد أن أجهزت على عدوها السابق الاتحاد السوفيتي، وارتاحت من حربها الباردة معه؟

وما معنى التحالف لمكافحة الإرهاب، إذا كانت همة الإرهاب تُوجه للطفل الفلسطيني يواجه الدبابة الإسرائيلية بالحجر تعبيراً عن وجوده، ويجود بنفسه فداءً لأمته ووطنه،ويُسكت عنه عندما يمارسه الإسرائيلي:

اغتصاباً للأرض وهدماً للمنازل واقتلاعاً للأشجار واغتيالاً للرجال وقتلاً للنساء والأطفال؟

ما معنى أن يطلب مكافحو الإرهاب من المظلوم أن يلزم الهدوء ويكف عن البكاء، ولا يطلبوا من الظالم أن يتوقف عن ظلمه ولو على سبيل التلطف والرجاء؟

ما معنى أن يُدان مقتل أطفال إسرائيليين في الزحام، ويُسكتَ عن قتل سبقه لأطفال فلسطينيين في طريقهم إلى مدرستهم؟!

وأن يُدان رد الفعل الفلسطيني الدفاعي مهما كان عنيفاً ويُلتزم الصمتُ إزاء الفعل الإسرائيلي العدواني الذي يسبقه اغتيالاً وتقتيلاً يومياً، بل يشجَّعُ ويُصفق له إخضاعاً لشعب يدافع عن أرضه وعرضه ووجوده وحقه في تقرير مصيره؟

فهل يصبح الإرهاب شرعياً إذا تمكن بالقتل والإبادة والطرد والتشريد والنهب من تكوين دولة وتشكيل حكومة إرهاب؟

ومن ذا الذي يمكن أن يضع يده في يده إلا من كان على شاكلته؟

أو ليس الذي يظاهر الظالم على ظلمه، ويأخذ بيده بدلاً من أن يأخذ على يده، وينصره بدل أن يزجره... ألا يكون ظالماً مثله؟

هل يكون المظلوم مخطئاً إذا فكر على هذا النحو، ووضَع الظالم ومن ينصره ويشد على يده ويسكت على ظلمه، في سلة واحدة؟

خـــاتمـــة

فخلاصة القول أنه مهما كان لزلزلة الحادي عشر من سبتمبر من شيء عظيم فان الأجدر بالعالم المتمدن أن يتحالف لمكافحة الظلم لكي

يختفي الإرهاب وتموت جذوره، وأن الإرهاب سيبقى مادام يمارَس بحرية وتأييد، وأن مكافحته على السطح تغذي جذوره في الأعماق.

فلم لا ينخرط العالم المتمدن في حلف الفضول، وأن يُعَولموا صيغة التحالف لتصبح:

"ألاّ يَدَعوا في العالم كله من سائر الناس والأجناس مظلوماً إلا كانوا معه على ظالمه حتى تردَّ إليه مظلمته"؟

فحاجة العالم اليوم أكثر إلحاحاً الى مثل هذا الحلف لحل مشكلة الإرهاب من جذورها.

الهوامش

1- محمد عدنان سالم، محاضرة بعنوان أمريكا والإرهاب دمشق 12-01-2002

2- محمد عدنان سالم المرجع السابق،

3 - نظر جريدة الشرق الأوسط ،مأمون فندي،أمريكا هي مرض العرب الأول،العدد 9421،ليوم 13-09-2004

4- أنظر جريدة الشرق الأوسط، إبراهيم الحيدري ، سوسيولوجية العنف والإرهاب،عدد 8414، ليوم 11-09-2002

5- أنظر محمد عدنان سالم ،المرجع السابق

6- المرجع نفسه

7- أنظر سيد قطب، في ضلال القرآن، دار الشروق بيروت 1987، ص120-125

8- المرجع نفسه ،ص 120-125

9-المرجع سابق ،ص 130

10-المرجع سابق ،ص154

11- محمد عدنان سالم ، مرجع سابق

12- المرجع نفسه